أخرى للاكليريكيين والكهنة لاسيَّا لإرشاد الشعب والوعظ أيام الآحاد الخ

وليس في بقيَّة رحلة الاب دنديني ما يهمُّنا فأنهُ زار مع رفيقهِ الاب برونو الاراضي المقدَّسة ثمَّ رجع الى طرابلس وبقيا فيها الى ان امكنهما ان يبحرا الى ايطالية في اوائل كانون الثاني سنه ١٥٩٧ بعد مرورهما بالاسكندرونة ثمَّ بقبرس ومنها الى البندقيَّة فلم يبلغاها الَّا بعد اتعاب واخطار كثيرة في اواسط شهر حزيران. ثمَّ رحلا الى رومية فدخلا المدينة المقدَّسة في ١٧ تموز. واذ كان الحبر الاعظم عالماً لم يمكن الاب دنديني ان يعرض عليهِ اخبار سفارتهِ الَّا في شهر تشرين الاوَّل فسُرَّ قداستهُ بنجاح السفارة ووعد بانَّهُ يداوم اهتمامهُ بالأمَّة الماورونيَّة مثنياً على اكليروسها وشعبها وإشعاراً بمحبَّتهِ نحوهما عيَّن لحمايتها ابن اخيهِ الكردينال ألدُبرندنديني خلفاً للكردينال پاليوتي

ثم نشر الاب دنديني رحلتهُ بعد سنة باللغة الايطاليَّة في رومية فنقلها الى الافرنسيَّة العلَّامة المستشرق ريشرد سيمون سنة ١٦٧٥ وعلَّق عليها عدَّة ملحوظات في مبتدي صفحة تدلُّ على سعة علمهِ باحوال الشرق وحسن نظرهِ وجودة فكرتهِ (لهُ دلة)

الاسقف الطريد

صفحة من تاريخ الكثلكة في الاستانة

للمرحوم الفنصل الفرنساوي فردينند رنزفال

حدث الواقع الآتي سنة ١٨٥٨. وفيها تعيَّن السيِّد نابوليون بنيامين كُنيس اساقفة على سَرامياثو عاصمة الهرسك والبشناق بعد ان قام احسن قيام بأمور اسقفيَّة غَلَطة في الاستانة. وكان السيِّد المذكور يميل الى الدين الكاثوليكي دون ان يُعلن بهِ الَّا انَّهُ كان يتشبَّه في لبسهِ بلبس الاساقفة الكاثوليك فيتردَّى بثوب ذي أزرار وعُرى صغيرة مثلهم تحت البُردة اليونانيَّة الواسعة

وبقي على ذلك مدَّةً حتَّى لحظ الكهنة الذين في حاشيتهِ نَزْعتهُ الى الكثلكة

فاسرعوا ووشوا به لبطريرك الفنار فتقدم اليه بالعود من مقامه سرايافو الى الاستانة . فادرك السيد نابوليون معنى هذا الامر وفهم انهُ مطلوب ليقوم بازاء محكمة ومع هذا لم يتريث في اجابته لامر البطريرك وبكل جرأة قدم الى عاصمة الدولة لكنهُ لم يطلب الضيافة في الفنار واتخذ لهُ سكناً آخر امناً في المدينة

فخرج يوماً لترويح النفس في بعض احياء الاستانة واذا برجلين من عصبة المتولين مطافئ البلدة من اشقى الناس وشر العباد هجما عليه كالذئاب ورمياهُ مكرهاً في عجلة مقفلة كانا اعدّاها لذلك ثم سارا به كلمح البرق الى جهة أدرنة . وقد حدث الامر على فور بالقوة الجبرية دون ان يستطيع احد الحضور في ذلك الحين ان يحتج على الجانيين او يصدهما عن العمل وكان الشقيان قد احتاطا لنفسهما واستخرجا من الباب العالي بواسطة الفنار فرماناً يبرزانه لكل من يتصدى لهما في فعلهما الاثيم ولو كانوا من رجال الشرط

على انَّ الخبر ما لبث ان انتشر في العاصمة فاستنكف منهُ كل من سمعهُ من اهل العدل وارباب الصلاح . والتجأت القصادة الرسولية في الاستانة الى سفير فرنسة هناك المسيو توفنيل (M. Thouvenel) ليتقذ المظلوم من ايدي اعدائه . فقدم السفير الى الصدر الاعظم رقيماً طالباً بالحاح من البطريركية اليونانية تحرير السيد نابوليون بنيامين . لكنَّ البطريرك انكر بكل عتو وقرفهُ على هذا الامر مؤكداً انهُ يجهل الواقع تماماً ولا علم لهُ بما جرى بحق الاسقف المظلوم وباي مكان هو

فلمَّا رأى السفير حبوط مساعيه بالطريقة الرسمية لدى الدولة حاول بنفسه كشف السرّ المكنون واثقاً بنشاطه وذكاء عقله لفكّ اغلال ذاك الاسير البئيس . فبحث عن وسيلة للبلوغ الى حبسه لينال من يده وثيقة يقدمها لارباب الدولة العثمانية تضطرهم الى طلب حرية الاسقف الطريد ضحية الظلم والاستبداد

ولكن ليت شعري كيف الوصول الى السجين ولا احد يعلم في اي مكان حُبس ! على انهُ ليس امر عسير على العناية الصمدانية التي ساعدتنا بنوع عجيب

كلّ يعلم انَّ بين الاديار التي اعتاد الروم اليونان الحجّ اليها مزارَين خصوصاً مبنيَّين فوق صخور شاهقة وكلاهما مشهور بقدمه وبما ينسبهُ اليه العموم من الأقاصيص الغريبة احدهما دير جبل آثوس في مقدونية والآخر دير مار يوحنَّا الربيلي القريب من

مدينة سماكوف في بلغارية موقعهُ في اعلى قمم جبال البلقان. فخطر على بال السفير مسيو توشيل انَّ الاسقف الجليل قد يكون حُبس في احدهما لوحشة موقعها وبُعدهما عن كل مجتمع بشري وبناء عليهِ كتب للعمال الى المسيو شَمپوزَو (Champoiseau) النائب القنصلي في فيليپي (Philippopolis) ليسعى بالتفتيش عن الطريد في احد هذين الديرين

وكنتُ الفقير وقتئذٍ من عمَّال قنصليَّة فيليپي فاستدعاني وعهد اليَّ بتلك المهمة لعلمهِ بمعرفتي التامَّة للُّغة اليونانيَّة ووقوفي على كلّ عادات الروم الارثذكس فرجح كوني اجدر بهذه المهمة من غيري فاتمكَّن من انقاذ السيِّد نابوليون

*

فخرجت من فيليپي مختارًا بنفسي لا اعلم ما ستكون نتيجة بعثتي هذه. فسرتُ متَّجهاً الى مدينة سماكوف الواقعة في سفح الجبل الذي في قمهِ مبنيّ دير القديس يوحنَّا الريلي. فقدَّمتُ زيارتهُ اوَّلًا قبل دير أثوس لوقوعهِ على طريقي مؤجِّلًا سفري الى جبل اثوس اذا ما خابت ظنوني في دير سماكوف

فسرتُ الى هذه المدينة وبلغتها بعد ثلثة أيام ونزلتُ فيها ضيفاً على الدكتور أنتربرغ (Dr Unterberg) المتولي فيها امور دولة النمسة والنمسويين المتعدِّدين الذين استوطنوا تلك المدينة لتعدين معادن حديدها الغنيَّة. وكان نائب القنصل النمساوي في فيليپي كتب اليهِ يوصيهِ بحسن استقبالي فرحَّب بي ولم يدَّخر وسعاً في إراحتي فهيأ لي فراشاً وثيرًا لليلتي واتاني بما لم انتظرهُ من المعلومات كما سترى

فبعد العشاء اخذنا نتداول الحديث الشجون فعرفتُ من كلام الدكتور انهُ كاثوليكيّ فنشَّطني علمي بدينهِ ان أُشير امامهُ الى الوقائع الحديثة مازحاً فسألتهُ هل بلغهُ ما جرى لرئيس اساقفة سرايافو السيِّد نابوليون

- فاجاب الدكتور على الفور: أجل اني اعرف قصَّتهُ برمَّتها وقد دُعيت آخرًا لاجبر لهُ ساقهُ المكسورة لمحاولتهِ الفرار من حبسهِ

فلم اكد انتالكُ عن إبراز عواطفي لدى استماعي هذا الكلام لكني ضبطتُ نفسي وتظاهرتُ بعدم الاكتراث فقلتُ: أَو لعلَّهُ هنا ؟

فانحنى الدكتور اليَّ كأنهُ يبوح بسرّ خفي قائلًا: نعم هو محبوس في دير مار

يوحنّا الريلي الذي صرتُ منذ زمن قليل طبيبَ رهبانه الرسميّ . أمّا الاسقف فهو في حالة يُرثى لها ولذلك اراد النجاة من مضطهديه فاخذ قِطَعاً من جوخ عتيق وجدها تحت يده فعقدها مع بعضها كحبلٍ مدَّهُ من نافذة قلّايته وتمنطق به الّا انّ حبلهُ انقطع في الهواء فسقط على الحضيض وانكسرت ساقهُ فحملهُ الرهبان الى حبس آخر وضاعفوا نحوهُ سوء معاملاتهم

فاستفدتُ من هذا الحديث كلّ ما كنتُ راغباً في معرفته ولذلك كففتُ عن السؤال الزائد لئلّا يشعر الدكتور بسبب سفري وحتّى انظر كيف اتصرّف في امري في الغد

فما كاد يسفر الصباح حتّى نفضتُ من الفراش بكل نشاط وبذلتُ الرجاء في ادراك غايتي واعددتُ رُزمة أمتعتي الصغيرة وسرتُ مع خادم ألبانيّ امين من عمّال قنصليتنا في فيليبي وكانت وجهتي الى دير مار يوحنّا بصفة احد زوّاره . ولحسن الحظّ كان ذلك النهار يوم عيد القديس شفيع الدير فأمكنني ان اختلط ببقيّة الزوّار دون ان تقع عليّ شبهةٌ ما

ولا بُدَّ ان أضيف هنا شيئاً مهمّاً الى ما سبق : كنتُ قبل ان اتجشّم السفر قد واجهتُ في فيليبي السيد كانوفا اسقف هذه المدينة اللاتيني من رهبنة الكبوشيين فسمح لي ان احضر في كنائس اليونان كلّ رتبهم الدينيّة وان اتقرّب عندهم لقبول الاسرار على شرط ان لا يتشكك احد من فعلي هذا . فاستنادًا الى هذه الرخصة اتممتُ كل الفرائض الدينيّة الجارية عند الروم وشاركتهم في مطانيّاتهم وفي كلّ حركاتهم وسكناتهم وانا لا اجهل منها شيئاً اذ كنت مولوداً في جزيرة زَنْتي الغالب على سكّانها الطقس اليوناني الارثذكسيّ فكنتُ متقناً لكل رُتَبه . وكنتُ ايضاً اتخذتُ لي اسماً يونانيّاً فدعوتُ نفسي ديونيسيوس باسم احد الرهبان القديسين المكرَّمين في جزيرة زَنْتي . فبعد ان انجزتُ كلّ صلواتي وكرّرت مطانيّاتي خرجتُ من الكنيسة وطلبت ان ازور الدير

فاتّفق ان الرئيس عيّن لمرافقتي شمّاساً يونانيّاً من الاستانة كانت البطريركيّة ابعدتهُ ليسكن هذا الدير تكفيراً عن بعض الذنوب التي كان اقترفها بأكثر شبابه . وكان هذا الشمّاس في مقتبل العمر وسيم الوجه يُدعى اغاثنجلوس وكان يلوح على منظره

انهُ مضنوك القوى ومتضايق في سكنى هذا الدير الذي يحول دونهُ ونوال رغائبهِ في رخاء العيش والحرّية المشتهاة

فما كدنا نتعارف حتّى اخذ يفتح لي قلبهُ ويعدّد لي اوجاعهُ ويذكر امتعاضهُ من معاشرة الرهبان البلغاريين العائشين في هذا الدير. ويذكرهِ اسم البلغار اظهر في لهجتهِ ما يدلُّ الى بغضهِ لهم واستخفافهِ بهم . والامر ليس فيهِ ما يجلب الاندهال لأنَّ اليونان والبلغار مع كونهم على دين واحد لا يزالون يتشاحنون ويتباغضون

وعند المساء عاد اليّ الشمّاس فزاد انساً وانبساطاً لِما شعر بهِ من الهدوء بقرب الشمس الى المغيب ولمنظر الطبيعة البهيج وبما سقيتهُ من الروحيّات تهيئةً لاكل العشاء فأخذ في الكلام عن امور شتّى الى ان قال لي بغتةً بصوت خافت :

قد زعمت انك سكنت في الاستانة في حيّ غلطة فلا بدَّ انك عرفت هناك السيد نابوليون بنيامين رئيس اساقفة سرايافو الشهير او تكون على الاقلّ سمعتَ باسمهِ

قلتُ : نعم اني سمعتُ بذكرهِ وبقصّتهِ ولكن بطريقة مبهمة غير واضحة

قال : أيمكنكَ يا سيّدي انَّ هذا الاسقف هو عندنا في هذا الدير وانهُ لا يبعد عنّا الّا بمسافة بضع خطوات ؟ . . أسفي عليهِ ! . . . فاني اظنّهُ شريد العقل مموساً بفهمهِ ! . . قد خطر في بالهِ فكر غريب . . يريد يتبع الشيعة البابويّة ! . . . فهذا يا سيّدي امرٌ مستقبح . . هذهِ مصيبة لهُ وللأمّة الارثذكسيّة جمعاء ! .

قال هذا وهو يُشعرني بصوتهِ انهُ متحسّر على ضلال الاسقف وانَّ الرحمة غالبة على قلبهِ . ثمَّ اردف قائلاً : «اما انا فكلُّ ما تسنح لي الفرصة لأراهُ ابكّتهُ على فعلهِ . ولذلك يعدُّ مواجهتي لهُ كعذاب اليم واذا حادثتهُ سكت واجماً لا ينبس ببنت شفة »

قلت : «لا غرو من فعلهِ هذا فانك انت شابٌّ فكيف يرضى شيخ جليل مثلهُ ان يسمع تبكيت فتًى في مقتبل العمر . ولعلّهُ ينصت الى كلام رجل غريب يتكلّم امامهُ ليس باسمهِ فقط بل يوقفهُ على ما هو شائع من الرأي العام »

فوقع كلامي هذا موقع الاستحسان في قلب اغاثنجاوس ورأيت في ملامح وجههِ انهُ اثّر فيهِ ولذلك اردفتُ قائلاً : ألا يمكنني ان اراهُ

قال الشمّاس : لا بأس ان تجرّب . . . فلعلّك تستطيع ان تهدي هذا الضالّ

المسكين . . واني لأعلم انهُ اذا رآني يبقى على جوده ولذلك اني سأدعك معهُ وابتعد عنكما بعد ان أقودك الى قلايتهِ

فرضيتُ بما عرضهُ عليّ دون ان اظهر اثرًا من الانبساط كأني اشكُّ في نتيجة زيارتي لاعادة النعجة الضالة الى حظيرتها ولو استطاع اغاثنجلوس ان يرى ما حازَ قلبي من الفرح لأخذهُ الانذهال من معارضتهِ بين خفايا نفسي وجمود ظواهري

وبعد ان تعشّينا سواء، بكل انشراح عيّن لي لليوم الثاني موعد زيارتي للاسقف ثمَّ سلّمنا على بعضنا وارينا الى فراشنا

*

سبقني الشمّاس في صباح يوم الغد مستأنسًا بمباشرتي وهو كاد يعدُّني كاحد مواطنيهِ . فاسرعتُ الى استقبالهِ فاخذني معهُ وقادني في دهليز طويل وضيّق حتّى بلغنا الى باب مظلم شبيه بباب السجون . وكان قلبي يجبُ وجبانًا قويًا وكاد التأثر يخنقني . ففتح الشمّاس الباب واذا بي رأيتُ ويا للاسف وجلًا جاثيًا الناظر يناهز الخمسين وهو جالس على الحضيض على جبهتهِ غضونٌ وعلى وجههِ تجعّدات من تأثير الاوجاع والجوع . . ذلك السيّد نابوليون ! . . وكان بقربهِ على الارض مثلهُ ولدٌ لا يزيد عمرهُ على ١٢ سنة . وهو يرقّع للاسير بعض اسمالهِ المتخرّقة والولد احد طالبي الترهّب كان في خدمة الاسقف يقرأ لهُ ويكتب ما يملّيهُ عليهِ . وكان ضوء خفيف ينفذ الى القلاية من كوّة فيها فيزيد منظر ذاك المكان كدرًا ووحشة . ففي هذا الحبس كان الرهبان ألقوا الاسقف الطريد بعد مخاوتهِ النجاة من ايديهم وموقعهُ في وسط الدير حيث لا سبيل الى الفرار

فلمّا رأى السيّد نابوليون انَّ باب حبسهِ قد فُتح رفع رأسهُ منذهلًا واذ لمح وجه الشمّاس دليلي اكبَّ منحنيًا . فاخذ اغاثنجلوس يشرح لهُ سبب زيارتنا لكنَّ الاسقف لزم السكوت كعادتهِ ولم يجب بكلمة فالتفت رفيقي اليَّ قائلًا : ترى اننا لا نستفيد شيئًا وهو يأبى ان يكلّمني فأدعك وحدك معهُ وأطلب من الله ان يؤيّدك بعونهِ . قال هذا وخرج واقفل الباب فبقيتُ وحدي بازاء السيّد بنيامين

أنّى لي ان اصف ما شعرتُ بهِ حينئذٍ من العواطف المتباينة كالترحّم على الاسير والغيظ على مضطهديهِ ولاسيّما الفرح لفوزي بالمرغوب ! . . . لكنَّ قيامي بالواجب

أتحمد في تلك الشواعر لئلا تفوتني برهة من ذاك الوقت الثمين . فأسرعتُ الى الباب ومكّنتُ منهُ الزلاج وتحقّقتُ انهُ ليس ثمّ أُذنٌ صاغية تُراقبنا ثمّ عدتُ الى جهة الاسقف وخررتُ على اقدامه وقبّلتُ يديهِ بمنتهى الشوق

فرفع اليَّ عينيهِ بعد ان بقي ناكساً واجماً ونظر اليَّ نظير الرجل الحذر كأنهُ يقول بلسان حالهِ: أَلستَ تريد ان تخدعني

اما انا فقلتُ لهُ بكل الثقة : « سيّدي السرعةَ كلَّ السرعة . أما عندك هنا قرطاس وقلم وحبر ؟ فارجوك ان تخطّ بيدك كتاباً تُعلن فيهِ بحبسك في هذا الدير

ففكّر الاسقف هنيهة كانَّ الرجاء بالخلاص احياهُ ثمّ قال : نعم اني استطيع ذلك ولكن يوم غدٍ اذ ليس عندي اليوم شيءٌ من ادوات الكتابة

فاردفتُ قائلاً لما خالج نفسي من الريب : ومن هو هذا الولد الذي كان يجوارك عند دخولي أيوثق بهِ ؟

قال الاسقف : لا خوف علينا منهُ فانهُ نعم الفتى يودّني ويتفانى في خدمتي

فتفاوضنا اذ ذاك في اي طريقة يمكن السيد نابوليون ان يبلّغني كتابهُ فاتفقنا على تسليمهِ الكتاب الى خادمهِ الصغير فيأتي بهِ ويضعهُ في احد المستراحات المختصّة بالزوّار . فبعد ان قرّرنا هذا الامر ودّعتُ الاسقف وخرجت من قلّايتهِ . ثمّ واجهتُ الشمّاس لأعلمهُ بإصرار الحبيس على افكارهِ

وفي صباح اليوم التالي قمتُ باكرًا اترصّد مجيءَ الولد فجاء في الوقت المعيَّن وليس هناك احدٌ من الزوّار فما دخل المستراح ووضع الكتاب في كوّة منقورة في حائطهِ ينفذ منها نورٌ ضئيل حتى خرج وتبعتهُ فوجدت قوطةً زرقاء من الخيش ملفوفةً وضمنها المكتوب المرغوب الذي خرجتُ للحصول عليهِ فتجشّمتُ كلَّ هذا العناء . ولولا وقوفي في ذاك السرح الغريب واحتياجي الى حفظ هيبتي متظاهرًا بعدم الاكتراث لاندفعتُ مترنّمًا بتسبحة الشكر (Te Deum) بل الفؤاد لكنّني طويتُ ذلك في صدري وسبّحت الله في قلبي

وبعد هنيهةٍ عدتُ الى قلّايتي وهناك بازاء ملائكة السماء الذين مهّدوا طريقي خررتُ ساجدًا وتلوتُ آيات الشكر لذاك الذي بارك مشروعي العسير بنوعٍ محسوس ولم يبق لي بعد هذا الّا الترحال فودّعتُ الشمّاس اغاثنجلوس ورهبان الدير

ثمَّ قفلتُ راجعاً الى فيليبي فوصلتُ اليها بعد أيام والسرورُ طافحٌ من جنانيَ فسلَّمتُ رئيسي كتاب السيّد بنيامين كعلامة انتصاري. فاهتزَّ فرحاً لهذا النبإ واسرع فارسل الى سفير فرنسة المسيو توفنل الكتابَ الموماً اليه فاخذه السفير وقدَّمهُ رسمياً للصدر الاعظم ليفكَّ اغلال السيّد نابوليون بنيامين ويطلق سراحهُ

فلمَّا وقف الصدر الاعظم على هذا الكتاب وهو المتَّفق مع بطريرك القسطنطينية لتوقيف الاسقف الكاثوليكي اخذ منهُ الاندهاش كلَّ مأخذ وهو لم يعلم بايّ طريقةٍ امكننا الحصول على هذه الوثيقة. لكنَّهُ لم يستطع إنكار مضمونها فارسل الى بطريركيَّة الفنار وطلب ان يُطلق سبيل السجين وبعد أيام قليلة اخرجوهُ من مكمنهِ وسلَّموهُ الى ارباب الدولة في سماكوف ثم وجَّهوهُ الى فيليبي راكباً عربةً فوصل الينا منهوك القوى بعد تعب السفر ومشقَّاتهِ الشديدة في حبسهِ. فنزل عندنا في دار القنصليَّة ضيفاً كريماً واقام يومين فسُررت لمرآهُ ايَّ سرور وشاطرتُهُ غرفتي للمنام. ومن فيليبي ارسلناهُ الى ادرنة واوصينا بهِ المسيو فرنزًا نائب قنصلها الذي عُني بتسفيرهِ الى الاستانة فاحتفى بهِ السفير وحاشيتهُ واكرموهُ إكرام اولياء الله وشهداء الايمان

وبقي السيّد نابوليون بعد رجوعهِ من منفاهُ مجاهراً بايمانهِ الكاثوليكي منقطعاً الى الله وكان يعيش في دير الآباء الفرنسيسكان في حيّ بيرا فيتمم عندهم في كنيسة مار انطونيوس كلَّ فرائضهِ الدينية شاكراً لهُ تعالى على ما انعم بهِ عليهِ من معرفة الايمان المستقيم والعيشة في حظيرة خليفة هامة الرسل وراعي كنيسة المسيح التي لاجلها كان رضي بتضحية حياتهِ. وبقيتُ اكاتب سيادتهُ من وقتٍ الى آخر حتَّى تراكمت عليَّ الاشغال في المناصب الرسميَّة التي قلَّدتني اياها دولتي فاضطررتُ ان اقطع تلك العلاقات الوديَّة وتلك الذكرى الطيبة والمبهجة للقلب

وقد بلغ الكرسيَّ الرسولي خبرُ نجاة السيّد بنيامين العجيب فأثاب رئيسي المسيو شمپوزو ومنحهُ وسام القديس غريغوريوس ونلتُ انا الفقير وسام القديس سلوستروس جزاء لخدمتنا للكنيسة. اما السيّد بنيامين فبقي عزيزاً مكرَّماً الى وفاتهِ الصالحة في السنة ١٨٩٧